تلقّي النّقّاد العرب للمنهج النفسي

د. عبد الرؤوف زهدي مصطفى*
د. سامي يوسف أبو زيد**

Abstract

The main object of this paper is to discuss the psychological impact in Arabic Literature. Arab critics took Ibn-al-Rummi (283H) as specimen of this study.

This Abasin poet is a specimen of this study. This approach is used to study his literary work and link it to the writer's autobiography. The foundation of this approach in the Arab poetry is coincide with Froidian school of psychological study in the west.

The most prominent Arab critics who belonged to this school are (i) Al-Aqaad, (ii) Al-Mazini, (iii) Mohammad Al-Nuwaihi, (iv) Ilia Hawi, (v) Ali Shallaq. As an example of this group, Al-Aqaad, used the psychological approach to study the poet's artistic work as a part of the poet's life.

The above critics studied Ibin Al-Ruumi's, geniousness, psychological compensation, the process of psychological climitization, psychological and misbehaviors (mental disturbances, the psychological self struggle and introvercy of his poetry. In fact, Ibin Al-Ruumi was a psychiatric case of study, in whose literature; they figured out the documents that dicover his autobiography and his profound psychological struggles. Thus, his character was wobbling and weakly built up to that the extent the documentary view was prominent in his work.

Therefore the literary aesthetic features were rare. Due to such defecieneis in his literary work, Arab critics were inclined to follow the psychological approach to analyze this humanistic experience in Ibn Al-Ruumi's poetry. Among the critics Al-Aqaad, who was in just in evaluating this poet and said the phrase "Ibn Al-Ruumi was excellent poet of his era and always alive in his poetry".

*** رئيس قسم اللغات، جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا، ص.ب. 42، عمان 11610، الأردن**

****قسم اللغة العربية / كلية الآداب، جامعة الإسراء الخاصة، عمان – الأردن**

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذه محاولة لدراسة ابن الرومي من خلال المنهج النفسي، تقوم على رؤية داخلية إلى أعماقه، وتتحسّس تجربته الشعرية، إذ عرف بمزاجه الحاد، وأطواره الغريبة، مع أنه شاعر فذّ في ابتكاره وإبداعه، وسموّ خياله وشدة حسّه. كذلك جعله النقاد أطول شعراء العربية نفسا وأكثرهم استقصاء. فمن ابن الرومي؟

ابن الرومي شاعر عباسي، يدعى علي بن العباس بن جريج، مولى لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور[1]. كنيته أبو الحسن. ولد صبيحة يوم الأربعاء في الثاني من رجب سنة 221هـ، الموافق العشرين من شهر يونيو سنة 823م بحسب رأي العقاد[2]، ببغداد. وكانت وفاته يوم الأربعاء سنة 283 هـ ببغداد[3]. وتتّفق الروايات على أنه مات مسموما، وأن الذي أمر بسمّه هو القاسم بن عبيد الله أو أبوه.

أغفلته مصادر أدبية قديمة، مع تعرّضها لمن هم دونه مكانة، وهو إغفال جاء متعمدا حينا، على نحو ما نجده عند ابن قتيبة (–276هـ) في كتابيه "الشعر والشعراء" و "عيون الأخبار"؛ ولعل ذلك يعود لتشيّع الشاعر وهجائه أعيان الدولة. وتجاهله ابن المعتز (–296هـ) في "طبقات الشعراء" لأنه هجا والده المعتز، في حين أهمله أبو الفرج الأصفهاني (–356هـ) في الأغاني؛ لأنه أساء إلى كثير من شيوخه وأصدقائه. وهناك من أهمله لأسباب غير معروفة كياقوت الحموي (–626هـ) في "معجم الأدباء" إذ لم يذكره إلا من خلال ترجمته لابن عمار[4].

أما ما ذكرته مصادر أخرى عن حياته وفنه فقليل، أقدمها "مروج الذهب" للمسعودي (–346هـ) و "الموشح" و "معجم الشعراء" للمرزباني (–384هـ)، و "العمدة" لابن رشيق (–456هـ) و "وفيات الأعيان" لابن خلكان (–681هـ). ونحن نستحضر

---

[1] انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 358/3.

[2] العقاد، ابن الرومي، ص88.

[3] انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 361/2.

[4] كاتب ومؤرخ أديب، كان صديقا لابن الرومي.

من هذه الكتب ما يسعفنا في إيجاد مفتاح لشخصية ابن الرومي؛ فقد روى صاحب معجم الشعراء أنه كان مريضا ضعيف الأعصاب، إذ "كانت به علّة سوداوية ربما تحرّكت عليه فغيّرت منه"[5]. ومن ثم كان عصبي المزاج، تغلب عليه السوداء، فإذا هاجت غيّرت منه كثيرا. وهو ما دفع المعري إلى أن يتّهمه بالخيال المريض، حتى ليزعم أن أدبه أكثر من عقله[6].

واستطرد صاحب زهر الآداب في ذكر أقوال في تطيُّر ابن الرومي ومنها أن الأخفش[7] كان يعبث به وينال منه إذ كان "يأتيه بسحر فيقرع الباب، فيقال له: من؟ فيقول: قولوا لأبي الحسن: مُرّة بن حنظلة، فيتطيّر لقوله ويقيم الأيام لا يخرج من داره"[8]. والأقاصيص الغريبة في ذلك كثيرة، تدل على أن الشاعر قد رُمي بالتشاؤم والتطيّر، وأن الناس كانوا يعبثون به، وكان يلقى منهم عنتا.

أما المعاصرون فقد تناولوه في دراسات كثيرة، أقدمها مقالات المازني في "حصاد الهشيم" وكتاب "ابن الرومي: حياته من شعره" للعقاد، و "ثقافة الناقد الأدبي" لمحمد النويهي، و "ابن الرومي: فنه ونفسيته من خلال شعره" لإيليا حاوي، و "ابن الرومي في الصورة والوجود" لعلي شلق.

المنهج النفسي

أفاد أصحاب هذه الدراسات من مناهج النقد الأدبي الحديث، وبخاصة المنهج النفسي. وسنقف في دراستنا هذه عند الدراسات النقدية ذات الصلة بالمنهج النفسي. فما هو هذا المنهج؟ ومَنْ أبرز الذين تأثّروا به؟

---

[5] المرزباني، معجم الشعراء، 289.

[6] المعري، رسالة الغفران، 476.

[7] هو أبو الحسن علي بن سليمان، نحوي بصري، من أصحاب المبرد.

[8] الحصري القيرواني، زهر الآداب، 485/1.

يقوم المنهج النفسي على دراسة الأعمال الأدبية على أساس الربط بين هذه الأعمال وسير أصحابها، أو نزعاتهم النفسية الدفينة. وارتبط ظهوره بمدرسة التحليل النفسي Psycho-Analysis School وهي مدرسة عُرفت في علم النفس بمجيء الطبيب النمساوي سيجموند فرويد (–1939م) واثنين من تلامذته هما: الفرد أدلر (–1937م) وكارل غوستاف يونغ (–1961م). وقد انشقّ هذان التلميذان عن أستاذهما، فأسّس الأول علم النفس الفردي، وأسّس الثاني علم النفس التحليلي. وسنتناول بإيجاز مفهوم الشخصية عند هؤلاء العلماء.

تقوم الشخصية عند فرويد على ثلاثة جوانب هي:

- الهو ID: ويمثّل الصورة البدائية للشخصية (الغرائز والدوافع الفطرية).
- الأنا الأعلى Super-ego: ويمثّل الضمير الحي والقيود الأخلاقية.
- الأنا Ego: ويمثّل الجانب الواعي (المتحضر) من الشخصية.

ورأى أن هذه الجوانب تتفاعل تفاعلا وثيقا في سلوك الشخصية.

أمّا أدلر فيرى أن الشخصية يحرّكها هدف نهائي هو الرغبة في التفوّق وتحقيق الذات، وأن الشعور بالنقص يدفع الإنسان إلى التعويض، فإذا أخفق أديب بعقدة النقص، فلا يعود قادرا على مواجهة المشكلات بطريقة سليمة.

وأمّا عند (يونغ) فإن الشخصية تقوم على عدد من الأنظمة المتصلة والمتفاعلة، منها: الأنا[9] واللاشعور الفردي[10]، واللاشعور الجمعي[11]، والنماذج العليا[12]، والقناع[13]، وتتّخذ اتجاهين: انبساطي يتوجّه نحو العالم الخارجي، وانطوائي يتجه نحو الاستبطان والتأملات الذاتية.

---

[9] المدركات الشعورية والأفكار والذكريات.

[10] الخبرات والتجارب التي يكتسبها المرء في حياته.

[11] الذكريات الموروثة عن الماضي.

[12] خبرات الإنسان البدائية.

[13] الشخصية العامة التي يظهرها الفرد للمجتمع.

ساهم هؤلاء العلماء في تطوير الدراسات النفسية، وربطها بالأدب، فالفنان عند "فرويد" شخصية انطوائية، انفصلت عن الواقع، تعاني من العصاب، يحقّق رغباته المكبوتة من خلال أعماله الفنية، جاعلاً هذه الأعمال إعلاء لدوافعه الجنسية[14].

أما (أدلر) فيرى في تلك الأعمال تعويضا عن الشعور بالنقص[15]. في حين يراها يونغ خلاصة خبرات موروثة تحدّرت إلى الفنان منذ عهود ما قبل التاريخ، تحقّق تكاملا فرديا واجتماعيا، ولتحقيق ذلك؛ نراه يغرف من معين النماذج العليا بما تحويه من رموز وأساطير[16].

النقاد العرب المتأثرون بالمنهج النفسي

أبرز النقاد العرب المعاصرين الذين أخذوا بالمنهج النفسي في الأدب، وتأثّروا به في دراسة ابن الرومي، هم: عباس محمود العقاد، والمازني، ومحمد النويهي، وإيليا حاوي، وعلي شلق.

فقد استطاع العقاد في مقدمة كتابه "ابن الرومي: حياته من شعره" أن يعرّفنا بأبعاد المنهج النفسي؛ إذ نادى بالطبيعة الفنية، وهي عنده "تلك الطبيعة التي تجعل فن الشاعر جزءا من حياته، أيّا كانت هذه الحياة من الكبر أو الصغر، ومن الثروة أو الفاقة ومن الألفة أو الشذوذ، وتمام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئا

---

(14) انظر: رينيه ويلك، نظرية الأدب، ترجمة محيي الدين صبحي، ص103.

(15) انظر: عبد الستار إبراهيم، الإنسان وعلم النفس، ص56.

(16) انظر: خليل الشيخ، مناهج النقد الأدبي الحديث، ص148-149.

واحداً لا ينفصل فيه الإنسان الحيّ من الإنسان الناظم، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره، وموضوع شعره هو موضوع حياته"[17].

وفي رأيه أن ابن الرومي ظفر بأوفى نصيب من هذه الطبيعة، لتفرّده بخاصة فريدة ليست في غيره من الشعراء وهي "مراقبته الشديدة لنفسه، وتسجيله وقائع حياته في شعره"[18]. ومن هذا المنطلق أخذ العقاد يستقصي جوانب عشق الحياة في شعر ابن الرومي، وحرصه على تسجيل المحطات العمرية المتميزة في حياته، وإفراطه في وصف الشباب وما فيه من ظواهر المتعة والعافية. ثم وقف عند احتفال ابن الرومي بالحياة وحبّه للألوان المتوهّجة والأزهار والكؤوس والحلي والخمر. وتحدّث عن عشقه للغناء ونفوره من الغناء القبيح، وإفراطه في تناول الأطعمة وتحدّث عن موقف ابن الرومي من المرأة فإذا هي تشغله وتحوّل إحساسه، وتصبح كاهنة المعبد الذي عشقه وهو الحياة.

ويخلص من ذلك كله إلى أن عبقرية ابن الرومي تتمثّل في عبادة الحياة، وحبّ الطبيعة، والتقاط الصور والأشكال، وتشخيص المعاني، وهي خصال تتسم بها العبقرية اليونانية؛ "فقد كان الإغريق بجملتهم كما كان ابن الرومي بمفرده، لو أن الإغريق كانوا يصيبون من كل متعة بمقدار، وابن الرومي كان لا يعرف في أمر من الأمور مقداراً أقلّ من الإفراط والإنهاك"[19]. والعقاد هنا يمزج في تحليله لعبقرية ابن الرومي بين ما أفاده من منهج التحليل النفسي، وما أفاده من الناقد الفرنسي "تين" Taine صاحب المنهج التاريخي.

ولكن يؤخذ على العقاد أن ما سمّاه الطبيعة الفنية للشاعر أو الكاتب قد لا تكون مطابقة لما يعرف من سيرته، كما يؤخذ عليه أنه أعطى مفهوم الوراثة دوراً كبيرا يتجاوز الوراثة البيولوجية إلى الوراثة الحضارية. ويبدو أن العقاد في موقفه من هذه العبقرية متأثّر بإعجابه بالشعر الأوروبي، يشاركه في ذلك زميله المازني. غير أن

---

[17] العقاد، ابن الرومي، ص6.

[18] م.ن. ص86.

[19] م.ن. ص281.

المازني تجاوز موقف العقاد حين زعم أن ابن الرومي "أقرب إلى شعراء الغرب وبهم أشكل، وإن بقي عربيا في لغته وموضوعاته"[20]. وإذ وقف عند أصله اليوناني، لم يستغرب "أن يرث مثل ابن الرومي، وهو آري الأصل – فارسي يوناني – كثيرا من شمائل قومه وصفاتهم، وأن يكون في شعره أشبه بهم منه بالعرب"[21].

وقد خالف الدكتور محمد النويهي في كتابه "ثقافة الناقد الأدبي" هذين الناقديْن الكبيريْن بقوله: "فابن الرومي شاعر عربي لا شكّ في عربية فنه مهما يكن أصله الجنسي، فهو جزء من التاريخ الأدبي العربي لا يفهم خارجه، ولا نستطيع أن نتصوّر انتماءه إلى نوع آخر من الفن، يوناني أو غير يوناني، وكل ما جاء به من تجديد فهو في نطاق العبقرية العربية"[22]. وردّ عليهما من منطلق علمي، ذلك أن العلم لا يؤمن بأن الفوارق العقلية بين الأجناس فوارق تورث بمعنى الوراثة البيولوجية، فضلا عن أن كلمة رومي أو بيزنطي ليست وصفا عرقيا بقدر ما هي وصف جغرافي سياسي. ولا شك في أن هؤلاء النقاد يخلطون المنهج النفسي بالمنهج التاريخي.

وإذ رفض النويهي أجنبية عبقرية ابن الرومي فقد خلص إلى أن ابن الرومي شخصية انطوائية وأنه امتاز في فنيين، هما: التحليل النفسي لشخصه وتجاربه، والهجاء، وأن هجاءه في الحقيقة تحليل لشخص غيره[23].

كذلك ردّ كامل سعفان على مقولة المازني بوصفها "تقوم على تنقّص العرب، والحط من قدراتهم"[24]. فضلا عن أن البيئة العربية الإسلامية هي التي صنعت ابن الرومي وغيره من الأفذاذ من غير العرب. وهو ردّ لا يختلف كثيرا عن رأي النويهي.

---

[20] المازني، حصاد الهشيم، ص256.

[21] المصدر نفسه.

[22] محمد النويهي، ثقافة الناقد الأدبي، ص263.

[23] م.ن. ص279.

[24] كامل سعفان، قراءة في ديوان ابن الرومي، ص130-131.

وتناول علي شلق ابن الرومي في أطروحة عنوانها "ابن الرومي في الصورة والوجود" أبرز فيها ملامح شخصية ابن الرومي، ونظرته إلى الوجود، متبعا في دراسته منهجا نفسيا يقوم على استخراج بواعث شعره والإشارة إلى مراميها، مازجا هذا المنهج بمناهج نقدية أخرى.

ولعلّ كتاب "ابن الرومي: فنه ونفسيته من خلال شعره" لإيليا حاوي يجسّد خلاصة تطوّر المنهج النفسي في دراسة ابن الرومي، فقد درس شعر ابن الرومي دراسة تحليلية تقوم على مشاركة الشاعر في تجربته والاطّلاع على أعماقه وأبعاده النفسية، مكتفيا بتحليل نماذج مختارة من أوصافه وأهاجيه وغزله ومدحه ورثائه، فضلا عن نموذجين لمطوّلاته. ونراه يوضّح طريقته في إصدار أحكامه وملاحظاته التي تقوم على التذوّق الجمالي، لكن هذه الأحكام والملاحظات جاءت – كما يقرّ هو نفسه – متناقضة وإن شابها كثير من التوحّد وربما التعميم[25].

---

[25] انظر: إيليا حاوي، ابن الرومي، ص7.

شخصية ابن الرومي

وإذ عرضنا إلى ما يمكن أن يساعدنا في إلقاء الضوء على شخصية ابن الرومي، علينا أن نسبر أغوار هذه الشخصية، لنتبيّن ملامحها بين دارسيه ونقّاده، ونرسم خطوطها وتعرّجاتها من خلال دراستنا لشعره، إن من يدرس شعر ابن الرومي، ويدرس ما كتب عنه يستطيع أن يلقي ضوءا على شخصية هذا الشاعر فقد استوفى العقاد، ما يمكن أن يقال في سيرته، وهي سيرة استلّها من نبذ قليلة في أخباره جاءت متفرّقة في كتب الأدب والتاريخ، واستطاع أن يعوّض النقص فيها من ابن الرومي نفسه؛ لتفرّده بخاصة ليست في غيره من الشعراء، هي "مراقبته الشديدة لنفسه وتسجيله وقائع حياته في شعره"[26].

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نتلمّس صورتيْن متباينتيْن لابن الرومي، يبدو في أولاهما شابا وسيم الطلعة معتدل القسمات، وهو لا يفتأ يذكر ذلك في شعره، مع أنه "لم يكن قط قوي البنية في شباب ولا شيخوخة ولكنه كان يحسّ القوة اليسيرة في الحين بعد الحين كما يحسّ غيره العلل والأسقام"[27]، وربما جاهر بأنه كان يصبي النساء الحسان، ويتعلق بهن، إذ يقول[28]:

أصبى وأصبي الغانيات وأُستزار وأستزير

بيض الوجوه عقائلا لم يصبهن سواي زير

ألا يدل هذا الشعر بحسب مؤدّاه أنه شاب جميل، تتلهف الحسناوات شوقا إلى زيارته. ناهيك عن أنه كان يتجشم الأهوال ويقتحم القصور ليلاقي محبوبته على طريقة امرئ القيس، فنسمعه يقول[29]:

---

[26] العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص114.

[27] م.ن.

[28] الديوان، 898/3.

[29] المصدر نفسه، 330/1.

فـــتجشّمت نحوهـــا الهـــول قد هوَّموا على الأبواب والحراس

وهي في نسوة حواسر لم يكحلـــن جفـــنا برقـــدة لارتقابي

طالعاتٍ عليّ من شُرف القصر يحاذرن رقبة الأبواب

ولها بينهن فيَّ حديثٌ جُلّهُ ليته يرقُّ لما بي

فتوقّفتُ ساعة ثم ناديتُ سلامٌ منّي على الأحباب

فتباشرن بي وأشرفن نحوي بشهيق وزفرة وانتحاب

ثم قالت: أما اتّقيت إله الناس في طول هجرتي واجتنابي؟

فهذه أبيات يقولها في معرض التقليد ليس غير، يقلّد بها امرأ القيس وعمر بن أبي ربيعة، وأنّى له أن يكون واحدا منهما. ولعله نظمها "ليعوّض على ذاته حسراتها"[30]، فقد كان يعترف بأنه ضعيف إزاء المرأة، إذ يقول[31]:

معه صبوةُ الفتى وعليه صَـرْفهُ الشـيخ فهْـو فـي تعذيبِ

مع أنه يسخر ممن اتّهمه في رجولته، بقوله[32]:

عاقب الله من يقو ل بأنّي مخنَّث

ويبدو أن ابن الرومي أدركته شيخوخة مبكرة، واشتدت وطأتها عليه "فرجفت أعضاؤه وتعاورته الأسقام واحتاج إلى العصا وزاغ نظره وثقل سمعه"[33]. وهي شيخوخة عجلت بها شهوانيته المسرفة، وسعيه إلى وسائل شاذة لتهدئة حدّتها، كانت من أعظم العوامل في تكبير الهرم إليه. أما في الصورة الثانية فيبدو شيخا اصطلحت عليه العلل والأسقام. وقد جمع العقاد ملامح هذه الصورة وقد جاوز الخامسة

---

[30] علي شلق، ابن الرومي في الصورة والوجود، ص151.

[31] الديوان، 140/1.

[32] الديوان، 140/1.

[33] العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص124.

والخمسين بقوله: "فإننا لا نتخيّل الجمال لشيخ نحيل معروق، تقوّس ظهره وشحب وجهه، وانطفأ وميض عينيه وطال عليه السقم والغم، ولم تزيّنه الشيخوخة بذلك التاج الفضي الذي تسبغه على رؤوس الشيوخ، ولا بتلك الحلية الناصعة التي تحيط بها وجوههم بالوقار والجمال"[34].

وليس هذا فحسب فقد كان جهازه العصبي مختلاً، وآية ذلك مشيته التي كان يضطرب فيها، إذ يقول[35]:

إن لي مشية أغربل فيها آمنا أن أساقط الأسفاطا

وكان ساهم النظرة يبدو عليه الوجوم، وهو وجوم يعلّله الشاعر بأنه يفكر تفكيرا عميقا، إذ يقول[36]:

وشقيقة قالت أراه مفكرا حتى أراه من السكينة نائما

فأجبتها إني امرؤ هيَّامة في كل واد ما أفيق هَماهِما

أمسي وأصبح للشوارد بهواجس حول الأوابد طالبا حائما

ومن تكن خيوط حياته من هذا النسيج، فإن منازع سلوكه ستكون شيئا من تلك الخيوط، لذلك فإن ملامح هذه الشخصية اتّسمت بالنهم، وشدة الإلحاح، والطيرة، والجبن والتردد، والسخر والتهكّم، والإحساس المرهف؛ وهو بذلك:

1- منهوم لا يشبع:

---

[34] المصدر نفسه، ص126.

[35] الديوان، 1438/4.

[36] المصدر نفسه، 2132/5؛ هيّامة: كثير الهيام وهو العشق؛ الهماهم: من أصوات الرعد.

كان ابن الرومي يقبل على المآكل وبخاصة الأطعمة الدسمة والحلوى والفواكه، وقد حفل شعره بأوصافها، وارتبطت هذه الأوصاف في نفسه بالنّهم، وربما كان ضعف جسمه من أعظم أسباب هذا النهم، إذ اندفع وراء لذّات الحياة وأطايبها "وأكبّ على مائدة الحياة كالطفل على مائدة الحلوى، لا تمنعه كظّة ولا تقمع شهوته حمية"[37].

يظهر نهم ابن الرومي في قصائده ومقطوعاته التي يوزّعها بين معشوقاته من "موز" و "لوزينج" و "لحم دجاج" وغير ذلك مما يشتهي.

أما الفاكهة وأخصّها الموز والعنب، فلها مكانة في قلبه، وفتنة ورواء في عينه، فهو إذ يأكل الموز يكاد يدفعه إلى القلب من شدة ولهه به:

يكاد من موقعه المحبوب يدفعه البلع إلى القلوب[38]

وللموز عند ابن الرومي أثر مترع باللذة، تخاله افتراع الابكار أو نشوة إغفاءة حالمة. وهو ما نجده في همزيته في الحسن بن عبيد الله بن سليمان، من أسرة آل وهب، وكان قد أهدى له فواكه شتى، خصّ منها الموز في ما يقرب من اثني عشر بيتا[39]:

إنما الموز حين تمكن منه كاسمه مبدلا من الميم فاء
وكذا فقده العزيز علينا كاسمه مبدلا من الزاي تاء
فهو الفوز مثل ما فقده المو ت، لقد بان فضله لا خفاء
ولهذا التأويل سمّاه موزا من أفاد المعاني الأسماء

* * *

رب فاجعله لي صبوحا وغبوقا، وما أسأت الغذاء

---

(37) العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص126.

(38) الديوان، 209/1.

(39) م.ن.، 61/1.

وقيلا

يشهد الله إنه لطعام خرمي يغازل الحسناء
وتخال انسرابه في مجاريه افتراع الأبكار والإغفاء
لو تكون القلوب مأوى نازعته قلوبنا الأحشاء طعام

في المقطع الأول يتلاعب باسمه وصحفه ليجعل من الحصول عليه حياة، ومن فقدانه موتا، ويستطلع من ذلك قيمة الوجود (الفوز) والعدم (الموت)، يدفعه عقله المطبوع على سرعة التنقل بين هاتين الدلالتين (الوجود والعدم) إلى مكامن الطيرة والتشاؤم، وهي حالة "تتقارب فيها العبقرية والجنون"[40].

وفي الأبيات الأخيرة تترافد حواسه، إذ يمزح لذاذاته بنوع من التقمّص النفسي الشديد التعقيد (أكل الموز – افتراع البكر – إغفاءة الحالم)، وهذا تصوير "عميق الإيحاء بالعقد النفسية المتلفعة في ظلمة ضميره"[41]، وكان يشتهي سمك الشبوط ويمعن فيه ناضجا[42]:

فيا حبذا إمعاننا فيه ناضجا كما جاء من تنّوره المتوقّد

وعلمنا أنه كان يشتهي اللوزينج ويتعلق به، وتنفتح له مغاليق نفسه[43]:

لو تغلق الشوة أبوابها إلا أبت زُلفاه أن يحجبا
لو شاء أن يذهب في صحنه لسهل الطيب له مذهبا
مستكثف الحشو ولكنه أرق جلدا من نسيم الصبا

---

(40) العقاد، ابن الرومي، ص214.
(41) إيليا حاوي، ابن الرومي، ص60.
(42) الديوان، 702/2.
(43) الديوان، 237/1.

ما أشبهه على حد تعبير علي شلق بأبي نواس وهو يذكر محامد خمرته "كلاهما متعبّد لما أحبّ، وانصرف إليه، وكلاهما يرتل أسماء مشتهياته"[44].

وأما العنب فيفرد له أرجوزة متكاملة، ويُنوّه بضرب منه يُدعى الرازقي، وفيه يقول[45]:

ورازقي مخطف الخصور كأنه مخازن البلور
لم يُبق منه وهج الحرور إلا ضياء في ظروف نور
لو أنه يبقى على الدهور قرّط آذان الحسان الحور
له مذاق العسل المشور ونكهة المسك مع الكافور
ويردُ مسِّ الخصر المقرور

فهو يتجلّى له فتنة ورواء، ويشغل جملة من حواسه، إذ تترافد حاسة الذوق مع حاستي الشم واللمس.

وقد ربط العقاد هذه الأبيات وأمثالها في وصف الطعام والشراب بعصر ابن الرومي، وهو عصر لم يكن الإسهاب في تلك الأوصاف معيبا ولا مُخلاّ بالمروءة؛ لأنه كان عصر الشهوات جميعا وأولها شهوة المآكل والمشارب[46].

ويرى إيليا حاوي أن تجديد ابن الرومي في أوصافه وليد الفقر والحرمان "فقد كانت شهوته تفسح لذاتها في شعره، تتخفَّف وتتنفس فيه، متخذا منها أداة للتعويض النفسي"[47]، ومن ثم كانت حاسته الفنية تخفف عنه وطأة هذا الحرمان، وتدفعه إلى رسم لوحاته.

---

[44] علي شلق، ابن الرومي في الصورة والوجود، ص74.

[45] الديوان، 3/987-988.

[46] العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص128.

[47] إيليا حاوي، ابن الرومي: فنه ونفسيته من خلال شعره، ص58.

2- مُسْتَجْدٍ لحُوح:

هذا هو الخيط المسحوب على مدى حياة ابن الرومي، نحاول أن نربطه بما آل إليه من ذلّ وهوان، وقد أضحى كائنا متضعضعا. إذ أسبغ على ممدوحيه جميع الصفات الفاضلة، وتفنّن في تعظيمهم؛ لينال رضاهم، ويحصل على ما يحلم به منهم، فهو يلحّ في طلب ما يريد، ثم يستجدي ثم يلحّ، وما إلحاحه واستجداؤه إلا لكونه "طفلا في مطالبه ورغباته"[48]، وهو يطلب من ممدوحيه المال، والطعام، والشراب، والملبس، والمركب، وبعض كماليات عصره، فضلا عن قضاء حوائجه وحوائج غيره.

فقد علمنا مثلا أن أقصى ما يطلبه من ممدوحيه هو مائة دينار، إذ يقول[49]:

وما المائة الصفراء منك ولا من أخيك الأريحي أبي الصقر ببدعة

وكان يلحّ على ممدوحيه ألاّ يقطعوا عنه الرزق، فيعاتب أبا سهل النوبختي[50]:

ما بال دينارك عنّي وتصدّيا لشكايتي وتعرّضا أعرضا

إن كنت في ثمن الحنوط أمرت بِهما تركتهما إلى أن أقبضا لي

وعلمنا أنه كان يطلب حظه من السمك "حظّي من الأسبوع لا تنسه"، ويطلب حظّه من اللوزينج "لا يخطئني منك لوزينج"، وقد يطلب تمرا[51]:

قد جاءكم تمر وأوجب قرب المصيفُ، لما لنا لا نُتمر؟

---

[48] علي شلق، ابن الرومي في الصورة والوجود، ص65.

[49] الديوان، 992/3.

[50] م.ن.، 1400/4.

[51] م.ن.، 955/3.

قسمه

وعلمنا أنه طلب قفيزين من حنطة، فاحتجب عنه أبو الفضل الهاشمي، فعاتبه عتابا يتّسم بالحسرة والأسى، إذ يقول[52]:

كأني سألتك قوت في سنة البقرات العِجاف العباد

كأني سألتك حَبَّ ذاك الذي من وراء الشّغاف القلوب

وكان هذا ديدنه في قائمة طلباته، التي لا تكاد تنتهي، لا يمسكه ضابط، ولا تلجمه عزيمة، فقد كان مسرفا، مع فقره وشدة حاجته. ويعود ذلك إلى "توفّز الحسّ ومطاوعة الرغبة الحاضرة والاندفاع معها وقلّة الصبر عنها"[53]. وقد يكون استجداء ابن الرومي لضرورة تحوجه، وقد يكون إلحاحه وتوسّله إلى ممدوحيه؛ لأنهم لم يحفلوا بطلباته، لكثرتها، ولدناءتها، إلى أن ساءت به الحال، وحصد شرّ حصاد، فصمت عن مطالبه، وقد امتلك من ممدوحيه يأسا وساء بهم ظنا "فوهن ما فيه من بقية عزم الشباب، وعاف السعي صارخا فيهم صرخته المدوّية"[54]، إذ يقول[55]:

لا عذر لي في أسفي على العطايا عفتها عفتها بعدها

وأيّا ما كانت الحال التي وصل إليها، فإن الشاعر "كانت تتعصّى عليه عملية التكيّف وفقا لأساليب المدح في التملّق الخفي المخادع. وكما اتّضح عجزه في مسايرة الناس، كذلك اتضح عجزه في مسايرة الممدوحين"[56].

---

[52] م.ن.، 1959/4.

[53] العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص132.

[54] العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، 194.

[55] الديوان، 361/1.

[56] إيليا حاوي، ابن الرومي: فنه ونفسيته من خلال شعره، ص278.

أجل، كان بعض هؤلاء الممدوحين يبذلون جهدهم في مساعدته، غير أن الكثيرين منهم "كانوا يقبلونه في مجالسهم ويحضرونه موائدهم غراما بضروب الشذوذ والشهرة، وكلفا بالطرائف والملح، فكانوا يأنسون به في بعض حالاتهم"[57].

وكان يعلم بهذا فيأسى ويحزن، فنسمعه يقول[58]:

أســـخطت إخـــواني، وأخفـــق فبقيت بين الدور والأبواب مطمعي

لكنْ أسى ابن الرومي وحزنه لا يمنعنا أن نوجّه إليه اللّوم، فقد وصل به الهوان إلى أن يخاطب القاسم بن عبيد الله[59]:

وحســـبي رِفعـــة وعلـــوّ بأني مرة قبّلتُ رجلك قدر

وقد يكون هو الذي قطع على نفسه رزقه "بسخافة عقله وجموح أوهامه ومخاوفه"[60]. ولكننا لا نستطيع أن نتمادى في لومه، فقد كان أسير نفسه "مسترسل الطفولة في جميع مراحل حياته"[61] يطلب القليل ليُشبع نهمه. فعاش "مشتّت الفكر بين القلق والخيبة والمطل والحرمان"[62]، وكانت حياته تراجيديا إلهية، نألم لها، إذ نسمع صرخته الجارحة[63]:

إلـــى الله أشـــكو غُمّـــة لا ينير ولا تنجاب عني لِجائبِ صباحها

نُشوب الشّجا فـي الحلـق لا هـو ولا هو ملفوظ كذا كل ناشب

---

[57] العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص184.

[58] الديوان، 271/1.

[59] المصدر نفسه، 1816/5.

[60] محمد النويهي، ثقافة الناقد الأدبي، ص310.

[61] علي شلق، ابن الرومي في الصورة والوجود، ص65.

[62] العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص189.

[63] الديوان، 224/1.

سائغ

ما هذه الغمّة التي لا تبرحه إلا نتيجة الإلحاح ومتابعة الطلب، وما هذا العويل سوى حديث عن مأساة وجوده.

3- مُتَطيِّرٌ يُسيء الظن:

اقترنت الطيرة بابن الرومي وانسحبت على وجوده، وكذلك لزمه سوء الظن بالناس وبكل شيء. ورويت في طيرته أقاصيص غريبة ألقت به في غيابة الحياة؛ وجعلت منه إنسانا غريب الأطوار والملامح؛ فقد كان مختلّ الأعصاب، حادّ المزاج. وضاعف عبث العابثين به من هذا الداء.

وقد تتبّع العقاد مداخل الطيرة إلى نفس ابن الرومي، وحصرها في جانبين هما: ذوق الجمال وتداعي الخواطر، إذ كانا فيه على أدق وأيقظ ما يكونان في إنسان؛ فقد طبعت نفسه على ذوق الجمال "تفرح وتتهلّل للمناظر الجميلة وتنقبض من المناظر الدميمة الشائهة"[(64)]. كما أن تداعي الخواطر ملحوظ في جميع شعره، "فهو يسلسل المعنى ويشعّبه حتى يُستنفد"[(65)]، وكذلك نراه في الألفاظ في تصحيف حروفها، ويستخرج البعيد والقريب من رموزها وقراءتها، ويستنبط منها ما يشاء من ملامح اليُمن والشؤم. فجعفر عنده تساوي جاعَ وفر، والخان يذكره بالخيانة:

فكم خان سَفْرٍ خانَ فانقضَّ كما انقضّ صقر الدّجن فوق الأرانب فوقهم

ويلعب بتصحيف الكلمات لينقلها إلى المدح أو الهجاء فيقول في القيان:

لا تلحُ من تفتنه "قنية" فإن تصحيف اسمها "فتنة"

والأمثلة في ذلك كثيرة[(66)].

---

(64) العقاد، ابن الرومي، ص210.

(65) م.ن.، ص209.

(66) انظر: المصدر نفسه، ص210 وما بعدها.

ويعلّق المازني على أخبار طيرته، بقوله "فلو أنّ ابن الرومي كان غير شاذ، وكانت حاله مألوفة وأمره غير خارج عمّا عهد أهل عصره، لما أنكروا من أموره شيئا، ولما وجدوا من أحواله داعيا إلى العجب"[67].

لكن العقاد يذكر أن هذه الأخبار "لا ترجع واحدة منها إلى ما قبل الخمسين من عمره"، أما طيرته الشديدة فكانت عارضا من عوارض شيخوخته "أفرط فيها بعد ما ابتلي بالآلام والأحزان، وساورته المخاوف من كل جانب، وقلّ حوله المواسي والرفيق"[68].

لقد تناقل الناس تلك الأخبار، جيلا بعد جيل، يتملّحون بها حينا، ويتندرون بها حينا آخر، ثم بنوا عليها مزاعم جديدة، كقولهم إن العقاد دخل السجن بسبب نحس ابن الرومي. ويذكر المازني أنه كتب عنه بضع مقالات، فلم يكد يفرغ من الأولى حتى كسرت رجله[69]. والمزاعم في ذلك كثيرة.

ويعزو علي شلق عبقرية ابن الرومي النادرة إلى ضعف بنيته واختلال أعصابه إذ وجدها قد تفتقت من بين هذين المظهرين، وهو ما تؤيده كتب التحليل النفسي التي ترى "أننا مدينون لبعض العاهات، والأمراض، والانحرافات، بكثير من نتائج العبقرية في كل العصور ولدى جميع الشعوب"[70].

وقرّر محمد النويهي أن ابن الرومي بلغ أقصى حدّ من الانطواء تستطيع أن تبلغه نفس إنسانية وأرجع ذلك إلى عوامل عديدة منها "تكوينه الجسماني، وتكوينه النفسي والعقلي، وما ألمّ به في حياته الشخصية من أحداث وتجارب"[71].

---

[67] المازني، حصاد الهشيم، ص264.

[68] العقاد، ابن الرومي، ص127.

[69] انظر: المازني، حصاد الهشيم، ص276.

[70] علي شلق، ابن الرومي، ص97.

[71] محمد النويهي، ثقافة الناقد الأدبي، ص281.

وابن الرومي عند إيليا حاوي أسير أوهاومه ومخاوفه من أشياء تبدو طبيعية في الواقع، لكنه يدفعها بطيرته إلى العنف والتعقّد والشذوذ، إذ "أصبحت تعتريه بأعراض المرض المتهالك الشديد، فيخاف من وهم الأسى وتوقّعه"[72]، غير أن شعر ابن الرومي لا يتسامى ولا يشرق إلاّ في ظلام أحزانه وقنوطه، تنبري له فيها "حالة المعاناة والصدق يتضاءل دونها كل شيء"[73]، وهو يلتقي بذلك مع علي شلق في أن عبقرية ابن الرومي من نتاج علله وعاهاته.

وإذا تأمّلنا شعر ابن الرومي وجدناه لا ينسى وهو في قمة أفراحه أن يغوص بإحساسه المرهف في أعماق الأشياء، ففي طرديته العينية التي يذكر فيها أيام لهوه، نراه ينأى بنفسه عن رفاقه، ويشارك الطير في بؤسها ويومها المشؤوم، إذ يقول[74]:

فظل صحابي ناعمين ببؤسها — وظلت على حوض المنية شُرَّعا

وقد ينتقل من وصف الصيد إلى تأمّل الطبيعة، رابطا من خلاله مصرع الطيور وفناءها بمشهد الغروب الذي يتصرّم فيه النهار ويقبل المساء إذ يقول[75]:

إذا رَنقت شمسُ الأصيل على الأفق الغربي ورساً ونفضت — مُذعذعا

ثم يُنهي المشهد بالحديث عن مصرع الطير فيقول[76]:

هنالك تغدو الطير ترتاد مصرعا — وحُسبانها المكذوب يرتاد مرتعا

تؤوب بها، قد أمتعتك، وغادرت — من الطير مفجوعا به ومفجّعا

---

[72] إيليا حاوي، ابن الرومي، ص211.

[73] م.ن.

[74] الديوان، 1477/4؛ شرعا: واردة.

[75] المصدر نفسه؛ يشبه منظر مغيب الشمس بالزعفران الأصفر، وقد تبدد متفرقا.

[76] المصدر نفسه.

فالطير تلقى مصرعها، فيما ترتاد مرتعها، في حين يجد المرء متعته في ذلك.

وهو إذ يمشي إلى قطاف العنب بصحبة فتية من أبناء المنصور، يلبس منظاره الخاص به، فتتراءى له فاجعة الحياة ومأساتها، منحدرا من قمة السرور إلى قاع الوجود، حيث يعود إلى طيرته.

4- جبان متردّد:

إن من يقرأ شعر ابن الرومي، يطالعه تناقض عجيب في نفسيته، فهو يدعو إلى نبذ الجبن وعدم التعلق بالحياة الدنيا؛ لأن هناك معاداً وحياة أخرى، يقول[77]:

لا تجبـــنَّ لأن الـــنفس فإنما الموت أيضا واحدٌ فقدِ واحدة

مـــا يجـــبن المـــرء إلا وهـــو أو مشفق أنه إن مات لم يَعُدِ معتقد

وهي دعوة يكرّرها في شعره، ناهيك عن أنه كان يسخر ويتهكّم بكل جبان منهزم، من ذلك أبياته في سليمان بن عبد الله بن طاهر، إذ يقول[78]:

حصـــلنا مـــن فـــتوحك يـــا على أن تسلمي وتهنّئينا سُليمى

إذا حمـــي الـــوطيس نجـــوتِ وغادرت الكماةَ مجدَّلينا ركضا

فقد عيّره بهزيمته في حرب طبرستان أمام الحسن بن زيد العلوي، وتخيّله امرأة.

---

(77) الديوان، 694/2.

(78) م.ن.، 2449/6.

هذه الشخصية التي تسخر من جبن الآخرين هي شخصية تقرّ بالجبن، إذ أجاد في وصف هذه الحالة التي كانت تعتريه، وقد تجلّت في قصيدته البائية في أحمد بن ثوابة، حين دعاه هذا السيد ليكافئه، بقوله[79]:

أذاقتني الأسفار ما كرّه الغنى إليّ وأغرانـي برفض المطالب

فأصبحت في الإثراء أزهد زاهد وإن كنت في الإثراء أرغب راغب

حريصا جبانا أشتهي ثم أنتهي بلحظي جناب العيش لحظ المراقب

ومن راح ذا حرص وجبن فإنه فقير أتاه الفقر من كل جانب

فقد اجتمع في هذا الإطار ألوان من التضاد تصوّر جوانب الصراع النفسي الذي كان يعانيه، وهو صراع قاده إلى التردّد، والتردّد من مظاهر الجبن:

فقدّمت رجلا رغبة ثم رهبة وأخّرت رجلا رهبة للمعاطب

إنه يحرص ويتقدّم ثم يُحجم ويرتدّ. وهو يسوّغ جبنه عن المسير إلى ممدوحه فيرى في سفر البرّ خطرا كامنا يترصّده، ناهيك عن ركوب البحر الذي يفزعه ويروعه:

وأما بلاء البحر عندي فإنه طواني على روع مع الروح واقب

إلى أن يقول:

فأيسرُ إشفاقي من الماء أنني أمرُّ به في الكوز مرَّ المجانب

---

[79] م.ن.، 213/1 وما بعدها.

وأخشى الردى منه على كل شارب فكيف بأمنيه على كل راكب

وتكمن في هذا التردّد "مأساة التناقض والجزر والمدّ في نفسهن يعيش في واقع يختلف تمام الاختلاف عن الشوق الذي يعتريه أو يصبو إليه. فهو أبدا مضطر مغصوب، يلتزم بالزهد وقد لذعه الطمع"[80].

ويرى العقاد أن ابن الرومي لم يكن مطبوعا على الصبر والجلد، فقد انطوى على اليأس، وأصابه الوجد "فكان هذا – مع ضعفه واعتلاله وحذره المغروس في تركيبه وحاجته إلى من يرأمه ويُعينه – صارفا له عن السعي في طلب الرزق والنزوح عن الوطن، جانحا به إلى القعود حيث قعد"[81].

وهكذا فقد كان تخوّفه من الطبيعة وقواها وتقلّباتها مقرونا بتخوّفه من الناس جميعا، وسوء ظنه بإنصافهم، وراء صراعه النفسي واضطرابه طوال حياته، ومن ثم انطوى على ذاته. وهو ما يسمّيه محمد النويهي انكماشا[82].

ويرى علي شلق أن ابن الرومي، على الرغم من إقراره بجبنه "فإنه مدَّعٍ متباهٍ، وتلك من صفات الخوارين"[83] من ذلك قوله[84]:

إذا ما هزرت الرمح يوم لجمع فذاك الجمع أول منفض كريهة

تضاءل في عيني الجموع لدى وإن هي جاءت بالقضيض وبالقضّ الوغى

---

[80] إيليا حاوي، ابن الرومي: فنه ونفسيته من شعره، ص208.

[81] العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص195.

[82] انظر: ثقافة الناقد الأدبي، ص278 وما بعدها.

[83] علي شلق، ابن الرومي في الصورة والوجود، ص60.

[84] الديوان، 1381/4.

إنه يصوّر وَهْماً من أوهام الفروسية "يملأ به جرابا فارغا من نفسه، أو ليعوّض عما فاته من شجاعة"[85]، ليس هذا فحسب بل إنه يعبّر "عن الحلم المفقود، عن الإحباط والفشل"[86].

لكنه سرعان ما يقرّ بأنه لا يقوى على مقارعة الأبطال، إذ يكفيه أن يفخر برأيه الذي يستضيء به أولئك الفرسان، ويفخر بقوته على المعالي[87]:

ولست مفاخرا جيشا، برأيي يستضيء ذوو القراع ولكن

وإني للقوي على وما أنا بالقوي على الصراع المعالي

5- هجَّاء يسخر بكل شيء:

ابن الرومي شاعر متميّز في فن الهجاء، لا يكاد يباريه شاعر في تاريخ آداب اللغة العربية. وقد جمع المعري بينه وبين دعبل في قوة الهجاء، وضرب المثل بهما في هجاء الدهر لبنيه:

لو نطق الدهر هجاء كأنه الرومي أو دعبل أهله

ومن هنا فقد كثر هجاؤه، وتفنَّن في تشويه مهجوّيه، واشتدّ وقوعه في أعراضهم، مع أنه كما يرى العقاد "لم يكن شرّيرا ولا رديء النفس ولا سريعا إلى النقمة"[88].

وكان وراء هذا الهجاء مجموعة دوافع، منها: شعوره بالغبن من مجتمعه الذي ضنّ عليه بمنصب أو بثراء، بالرغم من مؤهلاته العديدة، إذ كان الشعر أقل

---

[85] علي شلق، ابن الرومي في الصورة والوجود، ص60.

[86] كامل سعفان، قراءة في ديوان ابن الرومي 62.

[87] الديوان، 1472/4.

[88] العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص240.

أدواته[89]، "وكان الشعر وحده كافيا لجمع المال وبلوغ الآمال، فماذا بعد أن يعرف الناس أنه شاعر، وأنه كاتب، وأنه راوية مطّلع على الفلسفة والنجوم"[90]. ثم يرمون به في أحضان الفقر والعوز. وقد دفعه هذا الشعور إلى هجاء رموز الفساد في مجتمعه كالتجار ورجال الأمن، وهجاء الظلم والبخل والبخلاء. ومنها إحساسه المرهف، الذي دفعه إلى النفور من الأشكال الغريبة والقبيحة، فقد نفر من أصحاب اللحى الطويلة، ومن أصحاب الأصوات القبيحة، ومن أصحاب الأنوف الطويلة، ونفر من أصحاب العاهات كالأحدب، والأحول، والأعور، والأعرج، ومن أصحاب العاهات النفسية؛ كالبخيل والجبان، واللئيم، وثقيل الظل.

ولعل هذا النفور مرتبط بشخصيته، فقد كان متطيّرا غريب الأطوار. فكان يرى في اسم المهجوّ جانب الشر، فتتداعى في أوهامه المعاني، في مثل قوله في هجاء ابن طالب الكاتب[91]:

أزيرق مشؤوم، أحيمر قاشر — لأصحابه نحس على القوم ثاقب
أعوذ بعز الله من أن يضمني — وإياه في الأرض البسيطة جانب
ويُدعى أبوه طالبا وكفاكم — به طيرة أن المنيّة طالب
ألا فاهربوا من طالب وابن طالب — فمن طالبٍ مثليهما طار هارب

وهي أبيات تداعت فيها خواطر الشاعر، والتقت في رسم صورة الشؤم الذي أحاط بابن طالب، على الرغم من تباعدها في الظاهر.

---

[89] انظر: المسعودي، مروج الذهب، 283/4.

[90] العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص240.

[91] الديوان، 288/1.

من هذا الطراز أبياته في "البين"؛ وهو رجل اتخذ الشاعر اسمه رمزا للفراق، ثم أخذ يعبث به[92]:

يا "بينُ" أنت البين في عزّةٍ — بين غراب البين والأخطب
ينتقل الناس وأحوالهم — وأنت في الدنيا من الرُّتَّبِ
إذا جلا عن منزل فأنت — في أوتاده الرُّسَّبِ أهله

ويرى العقاد أن عصر ابن الرومي ضاعف ما في نفسه من الطيرة؛ فاستعصى عليه علاجها وسهلت عليه مطاوعتها[93].

أما المازني فقد علّل اندفاع ابن الرومي في الشتم والذم وبسط لسانه في الناس إلى ضيق خلقه، ونزق طبعه، وقصر أناته، وخصوصا إذا عابه واحد منهم بإحدى عوارته، وجعل ذلك دليلا على اضطرابه واختلال أعصابه[94].

وكان يهجو الذين يمطلونه ولا يجيزونه، فقد كثرت أهاجيه في ممدوحيه الذين أمسكوا عنه النوال، في حين أثابوا من هم دونه مكانه. وسبب ذلك أن شاعرنا "كان قليل الحيلة، لا يعرف طرق الدهاء، في عصر لم ينل فيه أحد منصبا إلا بالمكر والدسيسة"[95].

وكان يهجو دفاعا عن النفس، فقد هجا من انتقده أو عبث به هجاء مقذعا لا هوادة فيه. ويظهر ذلك منه في مواطن كثيرة، فقد هجا الناشئ حين رماه بالوسواس[96]:

---

[92] الديوان، 294/1.
[93] العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص215.
[94] انظر: المازني، ابن الرومي، ص52.
[95] العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص240.
[96] الديوان، 1197/3.

إن أوسوس فحقيق يسعد القرد وأُنحس

إلى قوله:

كيف لا يشتد وسواسي وأشعارك تُدرس

فهو إذ يعترف بهذا المرض النفسي فإنه يردّه إلى سوء حظه وإجحاف الدهر به.

وقد يكون ردّه أشدّ، على من زعم أنه نحس، فقد هجا ابن موسى الزمن بقوله[97]:

أتأمر بالتقزز من كلامي وذكرك يُصدئ الذهب السبيكا

زعمت بأنني نحس وإني مجيبك معلنا لا أتقيكا

فهذا هجاء يدفع عنه غائلة العابثين والمنتقدين، وما كان "يشفّ عن الكيد والنكاية وما شابههما من ضروب الشر المستقر في الغريزة"[98].

أما عيوبه التي أولعته بالهجاء وأوقعته في السفاهة والبذاء فهي شهوانيته وتهالكه على اللذات؛ "فالشهوانية هي التي هوّنت عليه الإقذاع. ثم أعانها الضعف وهو عيبه الغالب عليه الذي تبدأ منه وترجع إليه جميع عيوبه"[99].

ولعل إخفاقه في الحياة، فضلا عن توالي المصائب عليه قد ضاعفت من إحساسه بالخيبة، وقلقه من المصير، وضجره من الناس، فتفجّر ساخطا وكان هذا الشعور يلازمه "ويطبق عليه بجدار من الاسوداد والتهالك"[100]؛ فكان هجاؤه عبثا حينا، وسخرية حينا آخر، تسعفه ملكة التصوير في رسم صوره الكاريكاتورية. ناهيك عن براعته في تقليب المعاني والأشكال، فأخذ يذكر عورات الناس ويبالغ في تشويهها. فقد علمنا أنه كان يتعرّض لأصحاب اللحى الطويلة، من أمثال البحتري،

---

[97] الديوان، 1852/5.

[98] العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص238.

[99] العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص235.

[100] إيليا حاوي، ابن الرومي: فنه ونفسيته من خلال شعره، ص107.

وأبي حفص الورّاق، ولحية الليف. فتارة يتناول لحية معاصره ومنافسه البحتري فيمثّل لحيته بذنب البهيمة إمعانا في السخرية والازدراء[101]:

البحتري ذنوب الوجه ذا نعرفه وما رأينا ذنوب الوجه أدب

ثم لا ينسى أن يطلق فيها ألف موسى:

لهفي على ألف موسى في طويلته إذا ادّعى أنه من سادة العرب

وفي ذلك ما فيه من سادية.

ومن هذا النسيج سخطه على لحية أبي حفص[102]:

فإن غَدَتْ أجرة الحلاق تعوزه فقد أبحتُ يديه نتفها خُصلا

وتارة يصف لحية مهجوه بمخلاة الحمار، إذ يقول[103]:

إن تطل لحية عليك وتعرض فالمخالي معروفة للحمير

علق الله في عذاريك مخلاة ولكنها بغير شعير

والأمثلة في ذلك كثيرة.

يبدو في تعرّض ابن الرومي لهذه اللحى شيئان: تندّره وسخريته بها، ونقمته الظاهرة عليها، وما ذلك "سوى قناع آخر للتشويه والاختلال اللذين تنطوي عليهما نفسيته؛ بما يحفظه من تشاؤم وغرابة وشذوذ"[104].

---

[101] الديوان، 270/1.

[102] المصدر نفسه، 1900/5.

[103] المصدر نفسه، 927/3.

[104] إيليا حاوي، ابن الرومي: فنه ونفسيته من خلال شعره، ص115.

وعلمنا أنه كان يسخر من ذوي الوجوه البغيضة، ولعل قصيدته في وجه عمرو الكاتب صاحب الوجه الطويل تمثّل قدرته على الانتقام والسخرية؛ فقد تعرّض عمرو للشاعر بالسوء، وأهانه عمدا. وكان ابن الرومي قد خاطب بشأنه القاسم وزير المعتضد، لائذا ومستصرخا، فلم يعنه على عمرو، عندئذ انقضّ الشاعر على خصمه، مشوّها وماسخا صورته بقصيدة لامية، نقتطف منها بيتين[105]:

وجهك يا عمرو فيه وفي وجوه الكلاب طول طول

مقابح الكلب فيك طرا يزول عنها ولا تزول

فقد جعل من مهجوّه حيوانا، هو الكلب، ووازن بينهما، فإذا هما يلتقيان في طول الوجه، لكن الكلب أفضل من مهجوّه، فالكلب تتغير مقابحه، وعمرو لا تتغير. وهكذا لم يكن الهجاء عند شاعرنا سوى سلاح يلوح به أمام خصومه من أمثال عمرو "ولو عوفي في نفسه ورزقه لما بقي له من الهجاء إلا ناحيته هذه الفنية، وألاعيبه الصبيانية"[106]. وليس بعجيب أن تكون نهاية الشاعر بسبب هذا الهجاء.

6- مرهف الإحساس يحبّ الجمال:

ابن الرومي فنّان متحفّز المشاعر، شديد الإحساس بالطبيعة، لا يقف عند حدود مظاهرها، بل "يفيض من حياته هو عليها، ويعيرها من إحساسه وخوالجه حتى تعود في نظره حية نابضة مثله، لها حسّ وروح، وذاكرة، بل إرادة"[107]، تنبجس الأشياء من أعماق رؤياه، يلمح ما بينها من صلات، ويضمّها إلى نفسه، وينساق معها.

---

[105] الديوان، 2003/5.

[106] العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص250.

[107] المازني، ابن الرومي، ص111.

لقد تجاوز ابن الرومي غيره من الشعراء في دقة إحساسه بالجمال، وكانت حواسه جميعا ترفد هذا الإحساس، وبخاصة النظر والسمع. وقد ربط العقاد بين هذا الإحساس وعبقريته اليونانية؛ فابن الرومي كان "يعبد الحياة عبادة لا يبتغي عليها أجرا غير ما يبتغيه خُلص العابدين"؛ فهو يرى في محاسن الطبيعة عاطفة من عواطف العشق تتعلق بها العفة والشهوة تعلّقها بالعاطفة الإنسانية الشاعرة، وهو يحيا مع الشمس الغاربة حين تضع الأرض "خدّاً أضرع" من دهشة الفراق، وهو يحيا مع الذباب المغرد والطير الساجع في ساعة الغروب التي يمتزج فيها الحنان الذائب الشوق الخفيض[108]. ويخلص العقاد من ذلك إلى أن ابن الرومي كان محبّا للحياة في خفة وطفولة وأريحية دائمة، وأنه كان مشخّصا لتلك المحاسن، ومن ثم كان مأخوذا بالجمال في كل شيء، ومستغرقا في الحسن الدنيوي، وهذه سمات يونانية.

والعقاد في حديثه عن هذه العبقرية لا ينظر إلى أصول ابن الرومي الجنسية، فتلك مسألة تردد في الجزم بها، تخلّص منها بقوله: "فحسبنا إذن من كلمة العبقرية اليونانية أنها كلمة مفهومة في لغة الآداب، وإن لم تكن مفهومة في لغة الأنساب"[109]، ثم يعود فيؤكد أن تكوين جسمه وأعصابه ساعدا على تعليل إحساسه المتوفّز بالجمال.

وقد ردّ محمد النويهي على العقاد في محاولته إثبات عبقرية يونانية في ابن الرومي وعدّد الأخطاء التي وقع فيها، وهي: قفزه من الرومية إلى اليونانية قفزا لا تسوِّغه الشواهد، وعجزه عن تعليل هذه القضية، وإلصاقه صفات ثقافية وجسمانية باليونان لا يُدرى من أين جاء بها[110]. وهي أخطاء أوقعت العقاد في تناقض عجيب.

---

[108] العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص282.

[109] العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص282.

[110] م.ن.، ص318.

لم يقف ابن الرومي عند حدود الطبيعة الخارجية، بل "أخذ منها ما شاء ليفصح عن مشاعره وخواطره"[111]، فأحاط بكل ما فيها من أشياء، استوى لديه فيها المحسوس والمعنوي والمتوهم. وآنس بها جميعا، فألحّ على استعارة المرأة للطبيعة المتبرّجة، مثلما ألحّ على استعارة هذه الطبيعة للمرأة الفاتنة، ليعوّض عن شبابه المفقود.

فالرياض تغدو لديه فتاة ترتدي الأزياء المزركشة:

وريـــاض تخايـــل الأرض فيها خـــــيلاء الفـــــتاة فـــــي الأبراد[112]

كذلك الأرض وقت الربيع تغدو امرأة متبرجة تسرّ الناظرين:

تبرّجت بعد حياء وخفر تبـــــرّج الأنـــــثى تصـــــدّت للذكر[113]

وقوس السحاب، يغدو بألوانه الزاهية غادة حسناء ترتدي أثوابا مزركشة:

يطرزهـــا قـــوس الســـحاب بأخضر علـــى أحمـــر فـــي أصـــغر إثـــر مُبيضٍ

كأذيـــال خُـــود أقـــبلت فـــي علائلٍ مُصـــبَّغة والـــبعض أقصـــر مـــن بعض[114]

وفي المقابل نراه يستعير الطبيعة المترفة للحسان، ويغالي في ذلك حتى تبدو قصيدته بستان أزهار وثمار:

أجنـــت لـــك الوجـــد أغصـــان وكثبان فيهنّ نوعان تفاح ورمان

---

[111] انظر: محمد النويهي، ثقافة الناقد الأدبي، ص258.

[112] علي شلق، ابن الرومي في الصورة والوجود، ص115.

[113] الديوان، 683/2.

[114] المصدر نفسه، 993/3.

وفـــوق ذينـــك أعنـــاب مهدّلة سـود لهـنّ مـن الظلمـاء ألوان

وتحـت هاتيـك أعنـاب تلـوع به أطرافهن قلوب القوم قنوان[115]

وقد التفت محمد النويهي إلى تأثير اضطراب ابن الرومي الجنسي في نظرته إلى الطبيعة إذ "امتزج حسّه الفني بحسّه الجنسي بل طغى هذا على ذاك ولوّنه تلوينا شديدا فجعله يرى في الطبيعة أنثى تتبرّج وتظهر محاسنها بعد إخفاء، وتبدي طرائف وشيها وتتخايل في أبراد رياضها لتستثير بهذا كله الإحساس الجنسي عند الناظر إليها"[116].

وهو ما التفت إليه المازني والعقاد من قبل، فقد أعجب المازني بكلمة للعقاد في شعور ابن الرومي بالعلاقة بين تبرّج الأزهار وتبرّج النساء وإحساسه بالصلة بين محاسن الطبيعة ومحاسن المرأة، إذ يقول: "وربما كان علة هذا الشعور الغامض اضطراب في جهاز التناسل أهاج جميع أجزائه فهزّ خيوطها ونبّه وشائجها القديمة المختلفة، ومنها الإحساس بذلك التبرّج كما هو في قلب الطبيعة"[117].

وكما وصف الطبيعة، وصف الأطعمة وصفا ارتبط في نفسه بنهمه، إذ تناول العنب بحواسه كلها، وذاب عشقا بفواكه أيلول، ناهيك عن الموز الذي تلقّفه بقلبه. ووقف بإعجاب وتعاطف أمام قالي الزلابية، وهو يلقي العجين لجينا، فيستحيل شبابيكا من الذهب، كذلك وقف منبهرا أمام الخبّاز، وقد غدت الرقاقة في كفّه قوراء كالقمر.

وأبدع في وصف الحلوى، فاللوزينج ملدَّ عين وفم، في رقة (أوراقه) وبياضه، ومذاقه الشهي. والقطائف موضع سرور تقوم في نفسه مقام طعم الحب (سررت بها سرور عباس بفوز).

---

[115] الديوان، 1419/4.

[116] الديوان، 2493/6.

[117] محمد النويهي، ثقافة الناقد الأدبي، ص247.

ولابـن الرومـي أوصـاف أخـرى كثيـرة يعـرض فيهـا للأزهـار والريـاحين، والمشروبات، والأعياد، والحفلات، ومجالس الغناء والشراب، والثياب والحلي، والآلات الموسيقية.

والكلمة الأولى والأخيرة في ابن الرومي أنه قد ألمّ بوصف الطبيعة، بكل ما فيها من شكل ولون وحركة وصوت، حتى جعلنا نرى ونسمع ونحسّ ما يصدر عنه من وصف، وبخاصة وصفه الوجداني وهو وصف انصهرت فيه ذاته مع ذات الطبيعة.

الخلاصة

وخلاصة القول، أن القدماء كشفوا النقاب عن مظاهر نفسية، كان يعاني منها ابن الرومي إذ "كان شديد التغيّر سريع الانقلاب، ضيّق الصدر، قليل الصبر، مفرط الطيرة، غاليا فيها، وكان عظيم التخوّف، كثير التوجّس، يراه من يلقاه كالمتوجّس المذعور"[(118)]. وكان مريضا ضعيف الأعصاب يعاني من علة سوداوية تتحرك عليه أحيانا فتغيّر من مزاجه، وهذا فضلا عن أقاصيص غريبة رويت في طيرته.

وقد أفاد المعاصرون من هذه الأخبار التي رويت عنه، وأفادوا أيضا من المنهج النفسي في الكشف عن تلك المظاهر التي كان يعاني منها كالعصاب، والانطوائية، والشعور بالنقص والوسواس، متأثّرين بالنظريات الحديثة في التحليل النفسي، فراحوا يدرسون مزاج الشاعر وأطواره الغريبة بوصفه حالة مرضية، فأدخلوه إلى عياداتهم النفسية ورأوْا في أشعاره وثائق نفسية تكشف عن سيرته ونزعاته الدفينة.

فجاءت شخصيته مهزوزة متخاذلة، مجلّلة بالسواد، مهلّهلة النسيج، مختلّة، معذّبة، ناقمة، حائرة. ومن هنا طغت النظرة الوثائقية على هذا المنهج، وتراجعت

(118) الحصري القيرواني، زهر الآداب، ص242.

القيمة الجمالية للتجربة الأدبية، وذلك أن جوهر الأدب لا يكمن في الاضطراب النفسي الذي هو منشأ هذه التجربة، بل يكمن في اللذة الفنية التي تتحقّق بتأمّل التجربة والسيطرة عليها.

وكان على هؤلاء النقاد أن يأخذوا من المنهج النفسي ما يعينهم على فهم التجربة الإنسانية التي ينطوي عليها شعر ابن الرومي. وهذا فضلا عن افتراض خاطئ وقع فيه العقاد والمازني، فهي معرض حديثهما عن عبقريته اليونانية، قاصدين بذلك الكشف عن سرّ إبداعه. وهو افتراض لا يقوم على أسس علمية.

ومع ذلك فإننا لا ننكر جهود هؤلاء النقاد في دراسة هذا العبقري النادر، وبخاصة العقاد الذي أنصف الشاعر ودافع عنه في مواطن عديدة، وكانت كلمته الأولى والأخيرة فيه "أنه كان شاعرا في جميع حياته، حيّا في جميع شعره، وأن الشعر كان لأناس غيره كِساء عيد أو حلّة موسم، ولكنه كان له كِساء كل يوم وكل ساعة"[(119)].

---

(119) العقاد، ابن الرومي: حياته من شعره، ص346.

المصادر والمراجع

1- إبراهيم، عبد الستار،
الحكمة الضائعة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2002م.

2- حاوي، إيليا،
ابن الرومي: فنه ونفسيته من خلال شعره، بيروت، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية، 1986م.

3- الحصري القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي،
زهر الآداب وثمرة الآداب، شرح وضبط زكي مبارك، بيروت، دار الجيل، الطبعة الرابعة، د.ت.، 4 أجزاء.

4- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد،
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، الطبعة الأولى، 1986-1972م.

5- ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس،
ديوانه، تحقيق حسين نصار، القاهرة، وزارة الثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مطبعة دار الكتب، الطبعة الأولى 1073-1981، 6 أجزاء.

6- سعفان، كامل،
قراءة في ديوان ابن الرومي، مكتبة الدراسات الأدبية، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الأولى، 1986م.

7- شلق، علي،
ابن الرومي في الصورة والوجود، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1982م.

8- الشيخ، خليل،
مناهج النقد الأدبي الحديث، منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمان، الطبعة الثانية، 2003م.

9- العقاد، عباس محمود،

ابـن الرومـي: حياتـه مـن شـعره، بيـروت، دار الكتـاب اللبنـاني، الطبعـة السادسة، 1967م.

10- المازني، إبراهيم عبد القادر،
(أ) حصاد الهشيم، القاهرة، المطبعة العصرية، الطبعة الأولى، 1925م.
(ب) ابن الرومي: حياته وشعره، بيروت، المكتبة الحديثة، الطبعة الأولى، 1987م.

11- المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران،
معجم الشعراء، ومعه المؤتلف والمختلف للآمدي، تحقيق كرنكو، بيروت، دار الكتب العالمية، الطبعة الثانية، 1983م.

12- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين،
مـروج الـذهب ومعـادن الجـوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الفكر، د.ت. 4 مجلدات.

13- المعري، أبو العلاء أحمد بن عبد الله،
رسالة الغفران، ومعها رسالة ابن القارح، تحقيق عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، 1963م.

14- النويهي، محمد،
ثقافة الناقد الأدبي، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 1949م.

15- ويلك، رينيه،
نظرية الأدب، ترجمة محيي الدين صبحي، دمشق، مطبعة خالد الطرابيشي، 1972م.